هذا البحث يعنى بمحاولة تحديد طبيعة النظام الدولي المقبل، وانعكاساته على مفهوم القوتين العظميين للصراعات الاقليمية، وبخاصة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، ومناقشة التداعيات المتوقّعة على جانبي الصراع. وتجدر الاشارة الى ان ما ينطوي عليه هذا التحليل يدخل في باب الاجتهادات الكثيرة التي تحفل بها الساحة الفكرية العربية حول الجوانب المذكورة، مع ملاحظة ان تنوّع هذه الاجتهادات يقدّم تراكماً فكرياً مفيداً، قد يتمكّن الجانب العربي، من خلاله، من تلمّس بدائل الحركة المتاحة له مستقبلاً.

النظام الدولي بين الانفراج والتعاون

عندما التقت القيادتان، الاميركية والسوفياتية، في موسكو، في أيار (مايو) ١٩٧٢، شاع مفهوم «الوفاق» للتعبير عن الطور الذي بدأه ذلك اللقاء في النظام الدولي. وكان ذلك نتيجة لتوصّل القيادتين الى وثيقة تضمّنت اثني عشر بنداً تتعلّق جميعها بأسس جديدة لضبط النفس فيما بينهما، ولتأكيد مسؤوليتهما المشتركة الخاصة تجاه قضية الامن الدولي[٢]. وفي ذلك الحين، ولسنوات عديدة لاحقة، اعترض البعض على اطلاق مفهوم «الوفاق» كمصطلح مرادف للتعبير الاوروبي الذي أطلق على الحالة الجديدة détente ، معتبرين ان ما حدث لا يعدو ان يكون تجسيداً لفكرة «التعايش السلمي» الذي طالما دعا الاتحاد السوفياتي اليه وأنكرته الولايات المتحدة الاميركية وحلفاؤها؛ وان هذا التعايش أصبح حقيقة يقرّ بها الاميركيون، بعد ان استطاع الاتحاد السوفياتي كسر الاحتكار النووي الذي بدأه الاميركيون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية[٣]. لذا، فان ما تمّ لا يعدّ وفاقاً، وان مفهوم الوفاق نفسه هو ترجمة مغرضة لطبيعة العلاقات بين الدولتين العظميين؛ فهو يعني وجود نوع من الاتفاق المعلن، أو الضمني، من وجهة نظر المعترضين، على المسائل المختلفة، ومنها القضايا الاقليمية؛ لكن الصحيح ان ما حدث هو نوع من الانفراج[٤]. وهذا الانفراج لا يقصد به سوى منع الصدام المسلّح الذي لا كاسب من ورائه أو خاسر، بسبب حالة الردع النووي المتبادل بين واشنطن وموسكو. أمّا الصراع الايديولوجي وصراع المصالح والنفوذ والاختلاف على الموقف من الاستعمار وتجاه حركات التحرر، ونحو ذلك، فهي أمور باقية. ويبدو ان المعترضين على مفهوم «الوفاق» كانوا محقّين في موقفهم، ذلك ان كلمة détente استخدمت، منذ مطلع الستينات، بعد أزمة الصواريخ الكوبية الشهيرة، وبعد انشاء «الخط الساخن» بين واشنطن وموسكو، وتوقيع اتفاقية الحظر الجزئي على اجراء التجارب النووية في العام ١٩٦٣. وكانت الكلمة تعني، آنذاك، «منع الوصول بالصراع بين العملاقين الى خطر الصدام النووي»[٥].

على أي حال، يهمّنا، من هذا الجدل الذي أُثير حول ما اذا كان العملاقان في حالة وفاق أم انفراج، تلك الاسئلة الجوهرية التي أُثيرت في أوساط العالم الثالث، وحركات التحرّر، حول مدى صدقية الاتحاد السوفياتي في انتصاره لقضايا التحرّر ومكافحة الاستعمار والعدوان. وقد أُثيرت هذه الاسئلة جهاراً وخفية، بعد ان لوحظت مراعاة موسكو الحرفية لمواثيقها مع واشنطن، المعقودة في العام ١٩٧٢ (وذلك بعكس الولايات المتحدة الاميركية)، وان معدّل التأييد السوفياتي أخذ يرتبط، بصورة واضحة، بالعلاقات الاميركية ـ السوفياتية. وفي حدود الصراع العربي ـ الاسرائيلي، فهم البعض نتائج الانفراج على انها تضمّنت اتفاقاً غير معلن على الاسترخاء العسكري في الشرق الاوسط. فالقوتان لم تتحدثا، في مواثيقهما، عن قضية الصراع العربي ـ الاسرائيلي، سوى في حيّز ضيّق جداً، لا يتوازى ومقدار تغلغلها فيه، ولا يتوازى مع سخونة الصراع ذاته، أو مخاطره المحتملة على